معالم المشروع النهضوي عند الأمير عبد القادر الجزائري

The landmarks of the Renaissance project under Emir Abdelkader of Algeria

ط.د/ يوسفي خيرة*

قسم الفلسفة –كلية العلوم الإنسانية –جامعة الجزائر 02

مخبر الجماليات والفنون والفلسفة المعاصرة

kheira.yousfi@univ-alger2.dz

أ.د/ حموش تونسية

قسم الفلسفة –كلية العلوم الإنسانية –جامعة الجزائر 02

مخبر الجماليات والفنون والفلسفة المعاصرة

tounsia.hamouche@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/25 تاريخ القبول 2024/04/04 تاريخ النشر 2024/06/22

ملخص:

مما لا شك فيه أن شخصية الأمير عبد القادر الجزائري قد عُرفت بالسماحة والانفتاح ودفاعه عن الأمة والهوية الإسلامية، كما يعد قطبا فكريا وثوريا تمكن من إرساء معالم المشروع الحضاري الإسلامي وترسيخ قيم العدالة والمساواة والاعتراف بالآخر، وكل هذا من خلال منظومته الثورية التي عززت الدافعية إلى التحرر، ولهذا تهدف دراستنا إلى معالجة هذه الأفكار التي تميز بها الأمير عبد القادر في التأسيس للإنسانية والعيش المشترك.

الكلمات المفتاحية: الأمير عبد القادر، الجهاد، النهضة، التحرر، التصوف، التسامح.

* المؤلف المراسل

Abstract:

There is no doubt that the Algerian personality of Emir Abdelkader is known for its tolerance, openness, and defense of the nation and Islamic identity. He is considered a pivotal intellectual and revolutionary figure who laid the foundations of the Islamic civilization project and entrenched values of justice, equality, and recognition of the other. All of this was achieved through his revolutionary system which enhanced the drive for liberation. Hence, our study aims to address these ideas that distinguish Emir Abdelkader in laying the foundations for humanity and coexistence.

key words: Emir Abdelkader, Jihad, Renaissance, Liberation, Sufism, Tolerance.

مقدّمة:

يعد الأمير عبد القادر (1808. 1883م) أحد أهم رموز التعايش والتسامح في التاريخ الإسلامي، وذلك راجع للبيئة الدينية الصوفية الغنية بالقيم والمبادئ الإنسانية التي تربى فيها الأمير ولهذا يعتبر نموذجا فريدا جمع بين القوة والحكمة وعمل على نشر الوعي وإذكاء الشعور الوطني لتحقيق مفهوم الأمة الجزائرية وبناء الدولة الحديثة.

عاش الأمير خلال القرن التاسع عشر كمفكر نهضوي وسياسي عسكري في فترة شهدت تحولات عالمية كبرى أثرت على العالم الإسلامي بشكل عام والجزائر بصورة خاصة، أدرك عبد القادر حينها خطورة هذه التحديات وعمل على إقامة الدولة الجزائرية الموحدة التي سعى إليها في مشروعه النهضوي والذي من خلاله نطرح الأسئلة التالية:

. ماهي محددات مشروع النهضة في فكر الأمير عبد القادر الجزائري؟

.كيف جمع الأمير بين القوة العسكرية والتجربة الصوفية وجعل منها منطلقا حضاريا؟

. إلى أي مدى تعتبر ثقافة الحوار والتسامح منطلقا حضاريا وما علاقته بمفهوم الدولة؟

تهدف هذه الورقة إلى تحقيق ما يلي:

. إبراز القيمة الفكرية للأمير باعتباره مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة

. استحضار التجربة الصوفية عند الأمير وجعلها مكونا أساسيا في مشروعه النهضوي

إذ يكتسي الموضوع **أهمية** بالغة لدى المفكرين لما عانته المجتمعات الإسلامية من هيمنة القوى الاستعمارية، والأمير عبد القادر كواحد من الذين عاشوا هذه الحقبة قد أدرك ما يمر به المجتمع من فوصى التخلف وأثره السلبي على وضع العالم الإسلامي، فترتب عن ذلك مقاومة ثورية وحدت مصالح الشعب وأسست لدولة العدل والمساواة.

وقد تم الاعتماد على المنهج التاريخي والمنهج التحليلي لتوافقه مع الإشكالية المطروحة، وذلك بتتبع مصادر الأمير وما أُلف عنه ومحاولة تحليلها بما يخدم الموضوع المطروح.

تم تحرير البحث وفقا **لخطة العمل** التالية:

مطلب الأول: نبذة مختصرة للأمير عبد القادر الجزائري

المطلب الثاني: الأمير عبد القادر رائد النهضة الإصلاحية

المطلب الثالث: مفهوم الدولة في المشروع النهضوي للأمير عبد القادر

المطلب الرابع: الفكر التحرري عند الأمير عبد القادر

المطلب الخامس: الأبعاد الإنسانية للمشروع النهضوي عند الأمير

المطلب الخامس: التربية الصوفية للأمير عبد القادر

خلاصة الموضوع

1- نبذة مختصرة للأمير عبد القادر الجزائري:

أ. نسبه الأسري:

"هو الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن مختار بن عبد القادر بن احمد المختار بن عبد القادر بن احمد المشهور بابن خده بن محمد ابن عبد القوي بن علي بن احمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف ابن احمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن محمد بن عبد الله المخص بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي بن أبي

طالب وأم الحسن فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم شرف وكرم وعظم"[1]

و"هو عبد القادر ناصر الدين الابن الرابع لعبد القادر محي الدين، ولد في 23 رجب سنة (1222- 1300هـ، 1807، 1883م) بقرية القيطنة على ضفة وادي الحمام في منطقة سهل غريس أين تقع في إقليم وهران في الجزائر "[2]

أبوه هو محي الدين وأمه زهرة نشأ وتربى بين أحضان والده وكان رابع اخوته ولد وأبوه في عمر الرابع والسبعين سنة علمه القرآن والشعر والخطابة وأصول الدين والنحر وغيره من العلوم الشرعية التي أخذها الامير عن والده في الزاوية التي كان يشرف عليها ويعود نسبه الى محي الدين المصطفى بن محمد بن احمد بن المختار بن عبد القادر بن محمد بن محمد بن عبد القوي بن عبد الرزاق بن الغوث الرباني سيدنا عبد الجيلاني بن صالح بن موسى بن عبد الله بن يحي الزاهد بن الامام محمد داوود بن الامام موسى الجوني بن الامام عبد الله المحضي بن الامام الحسن المثنى بن الامام الحسن السبط بن الامام علي بن علي ابي طالب.[3]

ب . بيئته التعليمية:

كان الأمير عبد القادر شخصية عظيمة امتازت بصفات متعددة في جوانب مختلفة، فكان المجاهد والعالم، السياسي، والصوفي، المصلح القائد برع في مختلف العلوم وحاز الأدب والحكمة، سافر إلى وهران وأكمل دراسته، من أهم ما كان يحفظه "صحيح البخاري ."[4]

في سنة 1241هـ؛ 1825م قصد مكة المكرمة مع والده ثم إلى دمشق لأخذ الطريقة النقشبندية ومنها إلى بغداد للالتقاء بالشيخ محمود الكيلاني وأخذ الطريقة القادرية ليعود إلى دمشق بعدها ويعيد فريضة الحج في مكة والعودة أخيرا إلى وهران 1828م.[5]

ترعرع الأمير عبد القادر في عائلة معروفة بالعلم والتقوى والجهاد، يرجع إليهم الأمر في كل صغيرة وكبيرة فكان لوالديه دورًا هامًا في تعليمه وتكوين شخصيته المتميزة، والده محيي الدين من كبار علماء الدين في الجزائر، وله مكانة علمية مرموقة، تلقى الأمير عبد القادر تعليمه الديني من والده، وحفظ القرآن الكريم وتفسيره، ودرس الحديث الشريف، غرس والده فيه حب العلم والمعرفة، وشجعه على السعي وراء المعرفة و كان لوالدته، السيدة بنت عبد القادر، دورٌ هامٌ أيضًا في تكوينه، علمته الأخلاق الحميدة، والقيم النبيلة، وحب الوطن, غرست فيه روح التسامح والاعتدال، ونبذ العنف والتطرف.

نشأ الأمير عبد القادر في بيئة صوفية غنية بالقيم والمبادئ الإنسانية ساعدته هذه الأفكار على تكوين شخصية قوية، وروح معنوية عالية وتميز بتحصيله العلمي، وبرع في العديد من العلوم، كان والده محي الدين (ت 1833م) الملقب بالشريف معروفا بالنفوذ مشتهرا بالعلم والتقوى وهو نهج ابنه من زوجته الثالثة السيدة زهرة ابنة سيدي محمد بن دوحة الحسنية.[6]

كان عبد القادر يكنى بأبي محمد إضافة إلى ألقاب أخرى اشتهر بها منها: أمير المؤمنين، ناصر الدين، الأمير الجزائري، ابن الراشدي، ابن خلاد.[7]

كان موضع اهتمام من طرف والده محي الدين متوسما فيه المجد والنصر، فأنشأه نشأة أهلته لتحمل مسؤولية الجهاد والقيادة، بداية من حفظ القرآن الكريم في مراحل عمرية مبكرة، ثم إلقاء دروس في الفقه وأصول الشريعة، وبعدها تعلم الفروسية فالجهاد.

جمع الأمير بين قوة الإرادة في الدفاع عن الإسلام وقوة تحمل المسؤولية في خوض حروب ضد الاستعمار، وهو بذلك يعد نموذج فريد جمع بين الحكمة والشجاعة والقوة وهو ما سنلاحظه في رحلاته العلمية.

ج. أهم المحطات العلمية للأمير عبد القادر :

كان الأمير موضع انتباه وعناية والده محي الدين فعاش في بيئة علمية ،كانت رحلته الأولى إلى وهران في سن الثانية عشر لتعلم مبادئ اللغة العربية تحت إشراف أحمد بن خوجة، وفي أوائل سنة 1823م عاد إلى زاوية قرية القيطنة لمتابعة علمه عند والده محي الدين[8]، كان والده مشتهرا بالعلم والمعرفة حرص على تعليم ابنه مبادئ العلوم القرآنية والعربية ،"فلما بلغ سن التاسع عشر قام بأول رحلة إلى الأراضي المقدسة ومن خلالها تعرف على مناطق تونس ومصر ومكة والحجاز رغم ما لحقته من متاعب رفقة والده من طرف حاكم وهران "حسن داي" آنذاك وفرض الإقامة الجبرية في وهران وهما في طريقهما إلى الحجاز".[9] ولم يتوقف الأمير إلى دخول مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، بل فور الانتهاء من اداه للفريضة سافر إلى دمشق وتمكن من خلالها " من حضور حلقات الدروس العلمية بالجامع الأموي ليتلمذ على يد الشيخ عبد الرحمان الكزيزي، وخالد النقشبندي في الحديث والتصوف."[10]

بعد عودته من رحلتي الحجاز ودمشق اتجه الأمير الى بغداد زائرا لضريح سيدي عبد القادر الجيلاني (ت1165م) وقد كان لرحلته هذه تأثير كبير على تكوينه الشخصي أين التقى بعلماء بغداد وتلقى العلوم الصوفية على يدهم الى غاية تبنيه للطريقة القادرية وقد أجازه في ذلك شيوخها " اجتمع بعلماء بغداد فتزود منهم علما وزهدا أين تبنى الطريقة القادرية على يد الشيخ السيد محمود شيخ الطريقة القادرية وأجازه مشافهة ومكاتبة."[11]

وهذه الرحلات المباركة التي أكرم بها الوالد ابنه تركت أثرا كبيرا في نفس الأمير عبد القادر، اذ ساعدته على توسيع أفاقه الفكرية والعلمية وتزود بالمعرفة والتقى بالعديد من العلماء وتعرف على مختلف الثقافات والأفكار، فعند عودته إلى بلدته القيطنة أوائل عام 1828م اعتزل الناس وانصرف للعبادة والدراسة انشغل لمطالعة الكتب الفلسفية والتاريخية وأعطى للتصوف اهتماما بالغا ظهر في اطلاعه الكبير لما كتبه الشيخ بن عربي (ت1240م).

رغم أن الأمير ووالده لم يظفرا بالأمان طول مدة رحلتهما إلى الحجاز إلا أنها كانت مثمرة من كل النواحي، حيث ظفر بمكانة واسعة حازها خلال هذه الرحلة التي تمكن فيها من الاطلاع على أحوال التي آل اليها العالم الإسلامي شرقا وغربا اكتشف فيها مواطن الضعف في نظام الإدارة الإسلامية وما جره الاحتلال لهذه المناطق من ظلم وفساد.

فما كان له إلا أن ينال شرف المقاومة ويتولى الإمارة رغبة في الاستقرار ومواجهة العدو الفرنسي وقد كان له ذلك فور عودته الى الجزائر حيث قرر تقلد المسؤولية للدفاع عن بلده ضد الاستعمار الفرنسي وبايعه الشعب الجزائري أميرا سنة1832م.

د . أهم ما كتبه الأمير:

كتب الأمير عبد القادر الكثير من المؤلفات تنوعت بين النثر والشعر والرسائل من أبرزها:

– ذكرى العاقل وتشبيه الغافل: عبارة عن "بحث فلسفي كتبه الأمير عند تواجده في مدينة بروسه التركية وذلك بطلب من الجمعية الآسيوية بباريس لا تتعدى هذه الرسالة الأربعين صفحة بوبها في ثلاثة أبواب ومقدمة وخاتمة" يقارن فيها الأمير بين العاقل والغافل من خلال تقديم نصائح وتوجيهات للمسلم وسعيه لإصلاح النفس وضرورة الجهاد في سبيل الله ،ويذكر الأمير في خاتمة الكتاب "كان الفراغ في تسويدها –أي تحريرها– يوم الاثنين 14 رمضان 1271هـ والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا" .[13] وسميت رسالة "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل لإظهار مقياس التمايز بين الناس الذي يكمن في العقل والعلم على أساس الوصول إلى الحق، وفي ذلك دعوة للتأمل والتأكيد على دور العقل في إدراك العلوم ولم يكتف الأمير بذلك بل أكد على دور العلم الشرعي والأخلاق في تحرير العقل بأسلوب واضح يؤكد على شساعة فكر الأمير، إذ كانت هذه الرسالة درة

في الأدب النثري بالجزائر في القرن 19م، ترفع من إنتاجنا الفكري وتسبغ عليه هالة من الجلال وتستحق منا كل عناية واهتمام."[14]

– المقراض الحاد: (لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد): ألفه عندما كان سجينا في قلعة أومبواز بفرنسا أواخر عام 1852م، والسبب لذلك أنه أراد أن يدافع عن دينه الإسلام الذي انتفض منه بعض حكام وأمراء أوربا [15]، وضع الأمير كتابه هذا مبينا أن الإسلام دين الإنسانية والرحمة والعدل موضحا ذلك كرسالة دعوية اعتمد فيه على العقل والحوار كحجة لإثبات دين التوحيد.

– المواقف الروحية والفيوضات السبوحية: نسب للأمير بعد وفاته ، وهو من أهم المصادر الصوفية ،جاء هذا الكتاب كمجموعة عن المواقف شارحة لمسائل التصوف ويعتبره البعض خلاصة لكتاب "الفتوحات المكية لابن عربي" جاء في 3 مجلدات إذ هو حسب كاتبه "نفثات روحية والقاءات سبوحية بعلوم وهبية وأسرار غيبية من وراء طور العقول وظواهر النقول خارجة على أنواع الاكتساب والنظر في الكتاب قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا" تناول الكتاب العديد من المواضيع الروحية والفلسفية منها: أحوال السالكين لطريق الحق، أسرار الكون والحياة، مقام العرفين بالله سبحانه وتعالى.

هـ . وفاته:

في السابعة من ليلة يوم السبت 19 رجب 1300هـ/24ماي1883م، لبى نداء ربه بنفسه راضية مرضية وذلك في قصره في قرية دمر بضاحية دمشق عن عمر يناهز 76عاما ليدفن بجوار سيده بن عربي بالصالحية لوصية تركها، وبعد استقلال الجزائر نقل جثمانه إلى الجزائر عام 1965م ودفن في مقبرة العالية بالعاصمة.

ومن المصادفات أن الأمير ولد في شهر رجب وبويع بالإمارة في شهر رجب وسلم بعد حروبه في شهر رجب وتوفى في شهر رجب.[19]

ومما قيل فيه أبيات شعرية للشيخ عبد المجيد الخاني وهي مكتوبة على قبره:

لله أفق صار مشرق دارتي ... قمرين هلا من ديار المغرب
الشيخ محيي الدين ختم الأوليا ... قمر الفتوحات الفريد المشرب
والفرد عبد القادر الحسني الأمير ... قمر المواقف ذا الولي ابن النبي
من نال مع أعلى رفيق أرخوا ... أزكى مقامات الشهود الأقرب

2. الأمير عبد القادر رائد النهضة الإصلاحية:

شخصية الأمير عبد القادر من الشخصيات المركبة جمعت الجهاد ببعديه الثوري والروحي كما وصفه الضابط الفرنسي **ماسو**: "أن عبد القادر قائد شعبي والقبائل تحترم هذا القائد الفذ أكثر مما تخافه لا شك في أنه استطاع أن يفرض سلطته بالقوة ولكنه نجح في تجسيد أمال الشعب ."[21]

هذه الهيبة التي امتلكها الأمير والتي كانت مستمدة من روح الإسلام وتقاليد المجتمع الجزائري، جعلت منه مصلحا مصححا للمفاهيم الخاطئة داخل مجتمعه منافيا للعنف والتعصب داعيا للتسامح والتعايش السلمي كانت الناس تلجأ إليه لحل مشاكلها ويتوسط به للعفو عن المحكومين وكانت كلمته لا ترد عند لحكومة بل كان ولاة الأمر يتقربون إليه حيث الحديث عن الإصلاح عند الأمير عبد القادر مرده راجع إلى ما يمتلكه من مقومات شخصية مثلت الأمير كرائد إصلاحي سعى إلى حماية وطنيته بمنطلقات روحية نابعة من الإسلام، وانتماء جعل عبد القادر مؤسسا لدولة الجزائر الحديثة ونموذجا للإسلام المتفتح الذي خلق نهضة جزائرية تجاوزت محيطها المحلي.

دافع الأمير عن الهوية الجزائرية المؤسسة على مبادئ السلم والعدالة وجمع بين النظرية والتطبيق في مسعاه الإصلاحي ببعده الديني والقيمي، ولهذا غالبا ما تميزت دعوته الإصلاحية ببعد إنساني دافع عنه الأمير دون أيه فوارق خلقية أو دينية، وفي هذا يصفه الكاتب يوهان كارل بيرت "قد كانت إنسانيته تدعو إلى إعادة الكرامة والتحرر وهي نظرة العالم المتبصر."[23]

يعتبر الأمير رمزا للكفاح والإصلاح وتمكن من استيعاب القيم الإصلاحية في تعاملاته الاجتماعية والعسكرية داخل الجزائر وخارجها متماشيا في ذلك مع المبادئ الإسلامية القائمة على الشورى والديمقراطية وتجسيد مشروع الأمة، وقد ظهر الإصلاح جليا في مقاومة عند الأمير كنهضة إسلامية منفتحة على الآخر، خرجت من ضيق التعصب والعنصرية إلى التسامح والإنسانية آمن من خلاله الأمير عبد القادر بوجود أمة جزائرية إسلامية مندمجة داخل قوميتها العربية تتمتع بالسيادة العسكرية والسياسية.

3 ـ مفهوم الدولة في المشروع النهضوي للأمير عبد القادر:

الدولة عند الأمير تلك المتعلقة بتطبيق المنهج الإسلامي في دساتيرها وحكوماتها، حيث نجح الأمير في بناء دولة تجسد قيم الإسلام وأسسها على أسس دينية، مما أدى إلى تحقيق نهضة حضارية بارزة، ويُعتبر الأمير الشخص الوحيد في القرن التاسع عشر الذي أسس دولة حديثة بفكره وسياسته، وبنى قاعدة سياسية وثورية تركز على مبادئ العدالة والمساواة، كما وضع مؤسسات تنظيمية وتشريعية تضمن ممارسة سياسية صحيحة، حيث كانت دولته تمثل ثورة ضد النظام العثماني الظالم وتحدٍ لسياسات الغرب.

فتأسيس الدولة لم يكن مجرد عملية عسكرية، بل كانت استراتيجية شاملة تشمل التوحيد القبلي وبناء هيكل جيش مؤسس على قيم الوحدة والانفتاح، مما جعلها تمتلك أسسًا قوية للتوسع والتطور، بفضل هذه الجهود، نجح الأمير في بناء دولة تتسم بالقوة والاستقلالية، مع التركيز على مبادئ الحرية والعدالة التي تمثل أساسًا للتطور الثوري داخل حدوده.

عمل الأمير على السلطة المشروعة التي تأسست بمبايعته تحت شجرة الدردارة، إذ قام الشيخ محي الدين بمبايعة ابنه وسماه ناصر الدين، كما تلقى البيعة من مختلف أعيان المنطقة والقبائل الجزائرية.[24]

اختير الأمير قائدا للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسي وفق ما تقتضيه الشريعة الإسلامية يوم 27 نوفمبر 1832م كبيعة أولى وقع عليها الأعيان الذين شهدوا البيعة، والثانية يوم 4 فبراير 1833م في ساحة بمسجد معسكر تضمن التأييد التام والطاعة المطلقة للأمير.[25]

بعد هذه المبايعة انطلق الأمير للتأسيس الدولة الجزائرية الحديثة بصفة قانونية من اجل الدفاع عن الوطن خاصة بعد معاهدة الاستسلام التي وقعها الداي حسين والاعتداءات الفرنسية المتكررة للقبائل الجزائرية.

إذ كانت البيعة التي أحدثها الأمير عبد القادر عبارة عن "عقد اجتماعي وسياسي يتضمن حقوق وواجبات بين الحاكم والشعب على أساس تجديدي وحركة حديثة في مسار التاريخ الجزائري والإسلامي" وقد كشف هذه العهد عن إرادة شعبية وطنية موحدة تأسست من خلالها الدولة الحديثة ظهرت فيها رسالة الوطنية والتحرر بوضوح في عقل كل جزائري متطلع لعالم جديد يتسم بالحرية والاستقلال، فكانت هذه الرسالة ردًا قويًا ضد أي تهديد خارجي.

4 . الفكر التحرري عند الأمير عبد القادر:

بدأ الأمير عبد القادر في بناء مجتمع يتجاوز حدود الانقسامات القبلية والتعصب ويُشكّل تلاحماً وطنياً، وقد اعتمد في ذلك على رؤية تعتمد على القيم الإنسانية الجامعة مثل العدالة والمساواة والتسامح، مما ساعد في تحويل المقاومة ضد الاستعمار إلى حركة إصلاحية وطنية شاملة، ولهذا يمكننا اعتبار فكر الأمير عبد القادر محاولة جادة لبناء مجتمع جزائري جديد يتمتع بالاستقلالية والتطور، ويحقق التوازن بين التقاليد العريقة ومتطلبات العصر الحديث من خلال الحفاظ على قيمه ومصالحه والانتقال به من التنظيم التفاضلي (القبيلة) إلى التنظيم العادل (الوطنية).

لقد كانت وطنية الأمير تهدف إلى الدفاع عن الحريات الإنسانية، وإرساء قواعد ديمقراطية حقيقية تسعى إلى تحقيقها في المجتمع الجزائري ونشر ثقافة التضامن الاجتماعي والأسري المبني على الحرية والعدل والمساواة والتسامح ونبذ التعصب ونشر ثقافة الالتزام التي يجب على الفرد الجزائري أن يلتزم بها أمام خالقه ووطنه ومجتمعه، لذلك قام الأمير بالحث على ترشيد القيم والعادات والتقاليد الثقافة الشعبية نحو خدمة المصالح العليا للوطن، كفكرة الإصلاح والمصالحة المبنية على حب الوطن والمحافظة على أمنه.[27]

هذا الوعي الوطني الذي أسسه الأمير والذي أراد به صياغة مقومات حضارية برزت في موافقه الوطنية والأخلاقية، إذ مثل صورة الهوية الجزائرية في فكر تحرري اتسم بالولاء للوطن والأرض كفكرة مقدسة مرتبطة بالعامل الديني المتمثل في الجهاد "وهو العامل الأساسي في توحيد القبائل والعشائر دفاعا عن الأرض والعباد باعتباره فريضة على كل مسلم."[28]

فإقرارنا بالوطنية يدفعنا نحو فهم محاولة بناء فكر تحرري مميز لشخصية الأمير عبد القادر، الذي أدرك أهمية الانتماء الحضاري الذي يستند إلى وعي المجتمع بتواجده ضمن الساحة العالمية هدفه كان الحفاظ على استقلالية المجتمع وتطوره على اعتبار أن الفكر الذي اعتمده الأمير عبد القادر ينطوي على محاولة للتحرر من النمط القبلي بشكل أساسي، وبناء دولة جديدة وحديثة تكون قادرة على مواجهة التحديات الاستعمارية والهيمنة الفرنسية، ويظهر الفكر التحرري عنده في إصلاحه للنظام القبلي التقليدي، في مقابل تطلعه لإقامة دولة قادرة على مواجهة التحديات الخارجية وتحقيق الاستقلال والتطور الداخلي.

هذا الوعي الذي أوجده الأمير قاد إلى حرية واستقلالية مواقف الأمير الثورية ونشر ثقافة الحوار ونبذ الفكر التعصبي في مقابل ترسيخ قيم العدالة والديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان هذه القيم التي تجلت في أساليب إدارته لشؤون الإمارة وفي مواقفه

الإنسانية النبيلة لما ساهم في حقن دماء أهل الشام والوقوف ضد العنف الطائفي من اجل حماية المسحيين سنة 1860م.[29]

كما عمل الأمير على إيقاف المجازر التي كادت أن تبيد المسحيين، حتى أنه كان ينادي في الشوارع ويقول "أيها المسيحيون تعالوا أنا عبد القادر بن محي الدين تعالوا سأحميكم". حيث قادت هذه المبادئ التحررية إلى فكر تجديدي دمج فيه الأمير بين الرؤية المستقيمة والقيادة الحكيمة، وأقر بها العدو قبل الصديق بفعل مواقفه الثابتة التي تسعى إلى تعزيز السلم والتعايش السلمي بين الشعوب ودعمه للحس الوطني، صاغ الأمير استراتيجية حربية تدافع عن هويتها العربية وانتمائها الحضاري، مع التركيز على الإنسانية كهدف أساسي للوجود.

5. الأبعاد الإنسانية للمشروع النهضوي عند الأمير:

بفضل رحلته الجهادية والإنسانية، برز الأمير عبد القادر كشخصية مميزة، أظهر قدرة استثنائية على القيادة والتفكير المستقبلي و كانت مسيرته مزيجًا من الجهاد الذي يناضل من أجل الحرية والعدالة، والتسامح والتعايش الذي يسعى إلى تحقيقه بين الثقافات والأديان، يقول الأمير في رسالة موجهة إلى فرنسا "الدين واحد ولو يعيرني المسلمون والمسيحيون انتباههم لقضيت على اختلاف وجهات النظر بينهم، ولغدوا إخوة في الداخل والخارج" فتطلع إلى بلوغ الإنسان الحضاري وإعطاءه حقه في الكينونة بدلا من التعصب فكان رمزا للتنوير والاعتراف بالآخر وضمان حقوق الإنسان وكرامته "تقابل وطنيته إنسانيته بحيث يمكن اعتبار الأمير أنموذجا لتأصيل حقوق الإنسان وقد تجلى ذلك في تعامله مع الأسرى بحيث سعى جاهدا إلى ما يعرف بأنسنة الحرب ."[32]

لم تكن حروبه فقط قضاء على الاستعمار بل كانت حوار وحسن معاملة واقتدار تميز فيها الأمير بالاحترام المتبادل والرعاية التامة لأعدائه وأسراه، تجلت إنسانيته على "بعث روح المحبة والتآخي بين أفراد المجتمع الواحد وكذا في تعامله مع غيره من غير مثله، أي مع

عدوه... كان يؤمن بانتمائه للوطن الأكبر وهو وطن الإنسانية جمعاء، وهذا ما عبرت عنه سلوكياته ومواقفه في الدفاع عن حرية الاعتقاد."[33]

من أكثر المواقف إنسانية تجلت في فكر الأمير حرصه على تجديد الفكر الإسلامي من خلال الخاصية الجهادية فكرا وعملا وخلق التلاحم بين الدين والوطن كهوية تحقق وجوده داخل مفهوم الأمة، فرغم بشاعة الحروب وما تجره من مآسي استغلها الأمير مجالا لنشر القيم الإنسانية المبنية على السلوك الأخلاقي المعادي للاستعباد.

وما يؤكد ذلك ما ذهب إليه هنري تشرشل في قوله "أن العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبداها عبد القادر نحوى الأسرى ليس لها مثال في تاريخ الحروب... والواقع أنه كلما كان الأمير حاضرا كان الفرنسيون يعاملون كضيوف".[34]

هذا الأمن الذي حققه الأمير ظهر في صور مختلفة من أهمها:

- إسهاماته العلمية من أجل إبراز الصورة الصحيحة للإسلام.
- استجابته الصادقة لنداء الأمة وجهاده ضد أعداء الوطن.
- حرصه الشديد على وحدة المسلمين ودعوته إلى نشر قيم التسامح.[35]

شكلت هذه الإسهامات سلم الإنسانية المتمثل في الأخلاق والدين والثقافة، ظهر بأخلاقيات احترام الوعد وعدم الاعتداء وإعطاء الأمان لمن يطلبه وجعل من الدين مصدرا للإنسانية المنصوص عليها في القرآن والسنة النبوية، مدعما ذلك بثقافة المتجسدة في قدرته على التعامل مع الأحداث.[36] إذ شكلت هذه المرتكزات أفقا حضاريا نشهده في التمثلات التالية:

- الدعوة إلى ضرورة احترام الإنسان والدفاع عن حريته.
- حماية كرامة الإنسان وقيمته الإنسانية.
- رفض العنصرية والتمييز بين الأديان والأجناس.[37]

كانت إنسانيته بادرة لتشريع قانون الإنسان الدولي ومنها مشروعا ناجحا لتقارب الأديان وتحاورها متجاوزا بذلك كل الخلافات وفي هذا الصدد يقول ديبوش: "لا يمكن أن يقوم بهذا إلا رجل عظيم وقلما يجود التاريخ بقادة يتصرفون بوحي العقل والدين كما تصرف الأمير، فهؤلاء مفاخرنا اتجاه الإنسانية كلها، فالإسلام لا يطلب من الإنسان أن يكون مجاهدا ليصبح إنسانا كاملا."[38]

ولا يتأتى هذا الكمال الإنساني إلا من المرجعية الروحية كمرجع ثابت خادم للإنسانية.

6 . التربية الصوفية للأمير عبد القادر:

يمثل التصوف تجربة روحية وفكرية في شخص الأمير، إذ عرف بجهاديه الأكبر والأصغر باحثا بذلك عن اليقين والكمال.

يعرف الأمير التصوف قائلا "جهاد النفس في سبيل الله أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية لا لشيء آخر غير سبيل الله."[39]

تتفق رؤية الأمير للتصوف مع ما يرد عليه من أحوال، من حال جهاده ضد الاستعمار إلى حال جهاده في إصلاح النفس وخضوعها للأوامر الإلهية، و"متابعة لأقوال وأحوال النبي صلى الله عليه وسلم في مقامات الدين الإسلامي الكامل الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان، الشريعة والطريقة والحقيقة."[40]

يتشكل التصوف عند الأمير ممارسة منفتحة تدعو إلى المحبة والسلام كنزعة إنسانية جعل الإنسان فيها مركز الوجود، مصداقا لقوله تعالى:﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾.

تنقسم حياة التصوف عند الأمير في مراحل ثلاث:

1- بداية تمظهرت حياة الزهد عند الأمير في رحلته مع والده إلى الشام أين تلقى الطريقة التقشبندية عن يد الشيخ خالد التقشبندي، وكذا الطريقة القادرية التي تلقاها ببغداد عن الشيخ محمود الكيلاني.

2- في الموقف الحادي عشر من كتابه المواقف بسجن أومبواز يقول الأمير" دخلت مرة خلوة فعندما دخلتها انكسرت نفسي وضاقت على الارجاء وفقدت قلبي"...

3- المرحلة الثالثة والتي تم له فيها الترقي الصوفي، وصل اليها في مجاورته بمكة المكرمة سنة 1279هـ مقبلا على العبادة والخلوة والتقى بالشيخ محمد الفاسي الذي أخذ عنه الطريقة الشاذلية.[41]

آمن الأمير عبد القادر بالعوالم الربانية كاحتياج روحي قائم على المناجاة والدعاء، حيث الصفاء و السكينة، فأن تكون صوفيا معناه أن تصير إنسانا مخلصا لله لا يشغلك شيء عن ذكره، ترى الله في ابسط دلالات الوجود ، حاضرا في تعاملاتك الحياتية فتراعي جميل كرمه عليك، فالتصوف هو نزوع إلى الحق تعالى يحاكي من خلاله الإنسان فطرته السليمة فطرة التوحيد التي جبل عليها في خطابه تعالى: **(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)** خطاب تحدد فيه أسرار الوجود لقوله تعالى:**(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون)** إلى أنوار الموجود إكراما لخليفة الله في اعمار أرضه، فإذا كان الله هو الأول والآخر الظاهر والباطن فتلك منة لا يدركها إلا صاحب عقل مقيد قلبه بحب الله متميزا بأخلاق الزهد والانقطاع إلى عبادته، إذ أن طريقة الأمير في التصوف " لا هي طريقة المتكلم ولا طريقة الحكيم المعلم، ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسل المرسلة وهي تلك التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة التابعين والسادات العارفين"[42] هذه الطريقة التي تعبر عن تجربة روحية فريدة من نوعها في العصر الحديث وازن في الأمير بين الجهاد بمفهومه

الثوري وبعده الصوفي لاشتمال المعنيين على العمل والعبادة محققا بذلك مشروع النهضوي في مفهوم الإنسان الكامل.

خاتمة:

من خلال المشروع النهضوي والذي تميزت فيه شخصية الأمير عبد القادر بروح اجتهادية ورؤية تجديدية تُعتبر لحظة تاريخية في بناء علاقة تقوم على توازن بين الذات الإنسانية والوجود، تتجلى قيمة هذا المشروع في تشكيل الإنسان الكامل.

ومن هذا المنطلق تتطلب شخصية الأمير عبد القادر تخصيص دراسات وأبحاث لاستظهار الخطاب التنويري الذي اتسم به، وكيف استطاع تحقيق تفاعل فكري متوازن بين تراث الصوفية الإسلامية ومفاهيم الحداثة الغربية؟،هذا التوازن يعكس قدرته على استيعاب العلم والفكر من مختلف الثقافات والتقاليد، وتفعيلها في سياق الإسلام والحضارة العربية وكنموذج ناجحً في إعادة توجيه العقل المسلم، وتحقيق توازن بين التقاليد الدينية والفكر الحديث، وبناء جسر من التفاعل بينهما بفضل رؤيته الواسعة وقدرته على التأقلم مع التحديات الحضارية.

الهوامش:

- قرآن كريم، سورة البقرة، الآية: 30
- قرآن كريم، سورة الأعراف الآية 172
- قرآن كريم، سورة يس، آية 82

المراجع:

1. محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج2، المطبعة التجارية الإسكندرية، 1903،د ب، ص 297 .
2. شارل هنري شرشل، حياة الأمير عبد القادر، ت: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، دس، ص 39.
3. رابح بونار، الأمير عبد القادر حياته وأدبه، مجلة أمال عدد خاص عن حياة الأمير عبد القادر، جويلية 1970، الجزائر،ص21.

4. نزار أباظة، الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر، بدمشق، ط1، 1994، دمشق، سوريا، ص 10.
5. المرجع نفسه، ص 10.
6. عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطلين للإبداع الشعري. دط. 2000، دب،ص12.
7. بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، دار النشر الالكتروني، دط، 1990، الجزائر،ص 08.
8. أحمد كمال الجزار: معارف الأمير عبد القادر والسادة الأولياء الأكابر، المطبعة العمرانية للأوفست، ط1997،01، الجيزة، مصر،ص19.
9. المرجع نفسه،ص19.
10. عبد الرزاق بن السبع ،المرجع السابق، ص 13.
11. المرجع نفسه، ص 14.
12. توفيق خرواع، الوجه الآخر للأمير عبد القادر من خلال كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مجلة الحوار المتوسط، العدد 2، المجلد12، 2021/05/30، ص 15
13. الأمير عبد القادر: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، ت: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية. القاهرة،دس، ص28.
14. رابح بونار، الأمير عبد القادر حياته وأدبه ، المرجع السابق، ص 22.
15. علي محمد محمد الصلابي: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، دار المعرفة للنشر، ج01،د ط، 2015، بيروت، ص 318.
16. الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، ط1، 2004، بيروت، ص7.
17. عبد الرزاق بن سبع، المرجع السابق، ص 63.
18. نزار أباظة، المرجع السابق، ص 37.
19. المرجع نفسه، ص 37.
20. المرجع نفسه ص 37 – 38.
21. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، دار الشروق، ط1، دمشق، 1969، ص 241.
22. المرجع السابق،ص 242.
23. سلوى لهلالي: الرمزية الوطنية في شخصية الأمير عبد القادر قراءة في خطاب كاتب ياسين بفرنسا 1947، مجلة الحوار المتوسطي، العدد2، المجلد 12، ماي 2021، ص 117.
24. حرب أديب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر 1808 – 1847 ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 88
25. المرجع نفسه، ص 88.
26. سلاماني عبد القادر: الإستراتيجية الفرنسية لإجهاض مشروع الدولة الجزائرية الحديثة، رسالة ماجستير في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2008، ص 11.

27. صادق دهاش: الوحدة الوطنية السياسية والعسكرية لدولة الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة البحوث والدراسات العلمية، ج1، كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية، جامعة يحي فارس، المدية الجزائر، دس، ص .80
28. محمد مجاود: الفكر الوطني والتحرري عند الأمير عبد القادر، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، المجلد4، العدد1، جامعة جيلاني اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، ص 11.
29. المرجع نفسه، ص 13.
30. محمد الشريف ساحلي: الأمير عبد القادر فارس الإيمان، ت: محمد يحياتن، منشورات الجزائر،دط، 2008، الجزائر، ص60.
31. برونو ايتين: الأمير عبد القادر الجزائري، ت:ميشيل فوري، دار عملية للنشر، ط1، لبنان، 1997، ص 348.
32. محمد الشريف ساحلي، المرجع السابق، ص 107.
33. بلحنافي جوهر: قيم السلم والتسامح في فكر وسلوك الأمير عبد القادر، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد10، قسم الفلسفة، جامعة مسيلة، جوان 2016، ص 167.
34. هنري تشرشل: المرجع السابق، ص 101
35. بلحنافي جوهر: المرجع السابق، ص 165.
36. عمر سعد الله: الأمير عبد القادر الجزائري وظهور القانون الدولي الإنساني، مجلة مصادر تاريخ الجزائر المعاصر، العدد1، المجلد 17، جامعة الجزائر، 2008، ص 35، 37.
37. فاطمة درعي: النزعة الإنسانية عند الأمير عبد القادر، الحوار المتوسطي، العدد2، مجلد12، جامعة سيدي بلعباس، ماي 2021، ص 139.
38. فتحي محمد: تجليات القيم الإنسانية لدى الأمير عبد القادر في رواية واسيني الأعرج (كتاب الامير مالك أبواب الحديد) المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، عدد خاص، مارس 2012، ص 90.
39. الأمير عبد القادر: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، دار الكتب العلمية، ج1، ط1، 2004، بيروت، ص 130 – 131.
40. المصدر نفسه، ص 6.
41. المصدر نفسه، ص 22.
42. المصدر نفسه، ص08.